الفصل السادس

الديـن

الدين جوهر ذاتيـة المسلم ، وذاتية الآخرين أيضاً . وكـانت دار الإسلام هي قوام العالم المتحضر الذي تحكمه حكومة مسلمة ويسوده قانون إسلامي ، وأقليات غير مسلمة تتمتـع بسماحة دولة الإسـلام وبظروف وافقت علـيها ، والفارق الأساسـي بين هؤلاء والعالم الخارجي يرتكز فى قبول أو رفض رسالة الإسلام .

وكان الإصطلاح الجسماني ؛ أو حتى الجـغرافي البشري المـتعارف عليه ذا أهـمية ثانوية . وكما رأينا فإن الكتاب المسلمين كانوا يدركون حقيقة وجود شعوب أخرى خلف الحدود الشمالية ، وكانوا يطلقون عليهم الرومان ، أو الفرنجة أو العبيد ، وأسماء أخرى غيرها ، وكانت هذه الشعوب تتحدث بلغات مختلفة ومشوشة ، لكن هذا في حد ذاته كان غير محدود . وكانت هناك أجناس وشعوب خـاضعة للسيطرة والنفوذ الإسلامي ، وبالرغم من أن المسلمـين فضلوا تأسيس عدد محدود جداً من اللهـجات المستخدمة في الإدارة والثقافة والتجارة . . إلا أنهم يـسرفون في الموازنة بين اللهجات المحلية واللهجات المميزة للقارة الأوروبية .

وكان الدين هو الاختلاف الحقيقي ، وكان يطـلق على الذين اعتنقوا الإسلام اسم مسلمـين ، وكانوا جزءاً من حزب الـله ، دون إعطاء أهميـة للبلد ، أو القـانون الذي يعيشون تحت سيادته . أما الذين رفضوا الإسلام فهم كفرة ، وتعني الكلمة كافر Kafir في الأصل من لا يعتقد في رسالة الإسلام ولا يؤمن بها وينكرها .

وتشير كلمة « كافر » إلى غير المسلمين كلهم ، ومع هذا . . فإن الاستخدام العربي والفارسي والتركي كان مترادفاً فعلاً مع الاستخدام المسيحي للكلمة . وبنفس النظرة كان

ينظر إلى دار الحرب على أنها تتكون بصفة رئيسية من عقيدة ودولة معارضة ، اعتقد أنها العالم المسيحي أولاً ، ثم أوروبا أخيراً وبطبيعة الحال كان المسلمون مدركين تماماً لفكر الآخرين بالإضافة إلى المسيحيين . وبعض هؤلاء مثل الهندوس والبوذيين في آسيا كانوا في عزلة إلى درجة لا تسمح بوجود أي صدام بينهم وبين معتقدات وعادات شعوب الشرق الأوسط والبحر المتوسط الإسلامية .

وبعضهم الآخر مثل افريقيا السوداء غير المسلمين ، وكانت للمسلمين علاقات وثيقة بهم ، إلا أنه كان ينظر إليهم أصلاً على أنهم مشركون وعابدوا أصنام ، ولكنهم غالباً كانوا محدودين . وقد عرفت في الشرق الأوسط ديانتان أخريان هما الزرادشتية واليهودية ، وكانت كل منهما محدودة جداً ؛ بحيث لم يكن لهما شأن كبير ، وفقدتا قوتهما السياسية ، ولم ينظر إليهما على أنهما دولتان في حالة حرب مع الإسلام . أما اليهود فكان ينظر إليهم على أنهم أهل ذمة ، ولقد سمح للبقية القليلة من الزرادشتيين بأن يكون لها نفس الوضع بصورة أقل أو أكثر . وكان الاستخدام الرسمي لكلمة كافر في العهد العثماني لا يشمل اليهود ؛ ففي المعاملات المالية المتعددة ، وفي الوثائق الأخرى التي تتعامل في أمور الشعوب غير المسلمة . . كان الإصلاح العثماني المتعارف عليه هو الكفرة واليهود ، وواضح ضمنياً أن اليهود هنا لا ينضمون تحت مصطلح الكفرة ، وهذا تعبير يدل على تفوق المسيحيين من ناحية ، وعلى الاعتراف بوحدة اليهود غير المتصدعة من ناحية أخرى .

وفي الاستخدام العثماني والتركي (الحديث) . . فإن كلمة كافر Kafir غالباً يحل محلها كلمة Gavur ، وهي تشير إلى الكفر بوجه عام والمسيحيين بوجه خاص - ودون شك . . فإن الكلمة هي تحريف لفظي لكلمة Kafir ، وربما تأثرت بالكلمة الفارسية الأقدم Gabr التي تعني في الأصل الزاردشتيين ، ولكنها في بعض الأحيان كانت تستخدم للدلالة على المسيحيين .

ومن الممكن رؤية التصنيف الذي يرتكز على الدين في التنظيمات الجمركية العثمانية، التي قسمت إلى ثلاثة أنواع من الضريبة الجمركية لا ترجع إلى نوعية

البضائـع ، ولكن ترجع إلى الـتجار وديانتهـم بصفة خاصة ، وكـان أقلها للمـسلمين العثمانيين أو الآخـرين ، وأوسطها لأهل الذمة وأعلاها للحـربيون ، وهم الذين جاءوا من دار الحرب . ومن الغريب أن اليهود كانوا يدفعون طبقاً للقسم الخاص بأهل الذمة ، مهماً كان ولاؤهم القومي والسياسـي ، وحتى إذا كانوا قد حضروا من أوروبا . وكانت نفس الـقاعدة مستعـملة في اتجاه عكـسي ، ويمكن رؤية ذلك فـي التفسير الـذي قدمه الفرس للامتـيازات الخاصة بخارج الحدود ، والتي طـلبها منهم الروس فـي بداية القرن التاسع عشر . وهؤلاء كـانوا على وفاق مع المسيحيين الروس ، ولكـنهم كانوا رافضين للمسلمين السنيين الذين جاءوا من الامبراطورية الروسية .

وهكذا . . فقـد كان الكافر مسـاوياً المسيحي من نـاحية الامتياز ، والأقـطار التي كانت تـكـون منها أوروبـا طبقاً لتصـوره الخاص ، كانت بالنـسبة للمسـلمين أراضي للكفرة ، وهي تعني المملكة المسيحية . ويبدو أن المقياس الديني للتطابق والاختلاف كان عالمياً . ففي حين أن الزائرين من أوربا للعالـم الإسلامي كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم انجليز ، وفرنسيون وإيطاليون وألمان . . الخ ، بين المشارقة كالأتراك ، أو الفرس ، فإن الزائرين المسلمين لأوروبا بالمقارنة سواء أكانوا قادمين من مراكش أم تركيا أم إيران ، كانوا لا ينظرون إلـى أنفسهم إلا على أنهم مسـلمون في مملكة مسيحـية ، ولا يشيرون عادة إلى أنفسهم أو بلادهم بالألقاب القومية أو الإقـليمية أو الجنسية . وكانوا يتحدثون عن بلادهـم بلا استثنـاء بأنها أرض الإسلام ، وعن حـاكمهم أنه حـاكم الإسلام ، أو كانوا يعبرون عن هذه المعاني بتعبيرات مترادفة .

لقد بدأ المـبعوثون العثـمانيون في نهـاية القرن الثامـن عشر فقط في الحـديث عن أنفسهم وعن بـلدهم بشيء من التخصيـص ، وذلك بأنهم عثمانيون وأنـهم يمتازون في الشكـل الإسلامي العـام ، ومثلما أشـار الرحالة إلـى أنفسهم بـأنهم مسـلمون ، وأن جماعتـهم هي جماعة الإسـلام أشاروا - كذلك وببسـاطة عند الحديث عـن الجماعات الأوروبية بلا استثناء ، أشاروا إلى أنهم كـفرة . ويذكر أحد الأتراك الذين زاروا النمسا في القرن الثامن عشر أن "السفير النمساوي أرسل ثلاثة كفار ليقابلونا" [1] . وهذا يعني

أن السفير (أطلق عليه اسم السنمساوي لأن الحكومات هي فقط التي تستطيع أن تعين سفراءها) قد أرسل ثلاثة رجال لمقابلتهم ، ولم تكن كلمة كافر تستخدم فقط في التعبير عن بعض الإشارات القومية أو السياسية الخاصة بالأوروبيين ، ولكنها أيضاً كانت تستخدم بصورة متكررة وكبيرة لتحل محل كلمات أساسية كثيرة ، مثل الشخص أو الرجل أو الإنسان .

ويعتبر الأوروبي مختلفاً ، لا لأنه ينتمي إلى بلد آخر ، أو لحاكم ، أو لأنه يعيش في مكان آخر ، أو يتحدث بلغة أخرى ، ولكنه مختلف لأنه يتبع ديانة أخرى . ونتيجة لهذا الاختلاف . . فقد اعتقد أنه عدو وعرف بأنه في مرتبة أقل . ودون شك . . فإن استخدام الأساليب الخاصة بالدعاية والإعلان الحديث كان معروفاً جيداً ، فإن الكتاب عن المملكة المسيحية استخدموا تكرارات لأحد لها للتأكيد على هذه النقاط ، فلم تذكر أي دولة ، أو مجموعة أو شخص أوروبي بدون ذكر كلمة كافر سواء كضمير ، أو كصفة ، إلا في استثناءات قليلة ، ولكن في بعض الأحيان - خاصة في كل المعاملات الرسمية والكتابات التاريخية - يكون من الضروري التمييز بين الدول أو الشعوب المختلفة ، وفي هذه الحالة كان يشار إليهم على سبيل المثال كالآتي : الكفرة الإنجليز ، والكفرة الفرنسيين ، والكفرة الروس وهكذا . وغالباً كانت هذه الصفة تؤكد باستخدام بعض صفات السباب واللعنات ، وكانت تأتي عادة على شكل قافية أو سجع .

وفي الاستعمال العثماني كانت لكل شعب سجعه الخاص ، مثل انجليزي دنس وفرنسي نجس ، وهنجاري منحوس ، وروسي موكوس ، وألماني قاسي القلب . . وهكذا . وبالنسبة للبلاد الإسلامية كان يوجد السجع الموجب والسالب وفقاً للظروف . أما بالنسبة للكفار . . فكانت كلها سالبة ، وكانت تحذف عند التعبير عن حسن النية[٢] . وكانت أسماء الأشخاص الأوروبيين في الكتابات التي ترجع للعصور الوسطى تصحبها عبارات سباب ثابتة ، ولم يكن هذا السباب سطحياً على الإطلاق ، ولكن كانت هناك تأكيدات ذات أهمية ، يصرح بها لتدل على سباب واضح . وكان الاستعمال الذي يشير إلى الأوروبيين بأنهم كفرة مستمر ومنتشر بصورة ملحوظة . وعلى سبيل المثال . . فهي

موجودة فـي الخطابات الـتي كان يقصـد منها الـصداقة والمجاملـة والمرسلة مـن الحكام المسلمين إلى الملوك المسيحيين الأوروبيين . وهـكذا . . نجد السلطان مراد الثالث يكتب إلـى المـلكة إليـزابيث ملـكـة انجلـترا ، يخبـرها بانتصاراته ضد الكـفرة النمـساويين والهنجاريين ، ويلـتمس من الملكة "الاتجاه والتقدم نحو الكـفرة الأسبان ، وأنها سوف تنتصر عليهم بمـساعدة الله" ، ويعبر عن حسن النية إلى حد ما تجـاه الكفرة البولنديين والبرتغاليين "الذين هم أصدقاؤك" . وحتى إن "جلبي" الذي يكتب في منتصف القرن السابـع عشر لا يزال يجد أنـه من الضروري أن تصاحـب كل إشارة عن الفرنجـة بعض العبارات مثـل اللعنات والدعاء بالخراب والجـحيم المقدر لهم وما يشـبه ذلك . وسجل موظف عثماني رسمي في نهاية منتصف الـقرن الثامن عشر في تقريره عن العمل الذي كلف به لتـحديد خط الحدود الفاصل مع الـنمساويين ، وهو يبدأ تقـريره بالإشارة إلى تحرير بلجراد "دار الجـهاد" مـن "أيـدي النمساويين الـكفرة السارقين" [٣] . وبصفـة عـــامة . . فإن السـياسة الأوروبـية والأعمال الحـكومية الأوروبية والأفراد ، وصـفت بصفات ، تنطوي عـلى الشر ، مثل الأدنى : التآمر والدسائـس ، والحيل ، وتعبيرات أخرى تشير إلى السفالة .

وعموماً . . فإن هـذا التصميم كان غالـباً ذا أساس ، وكان يعد من البـديهيات ، واستمر اسـتعمال مثل هـذه العادات اللفظـية بصورة جيدة فـي العصر الذي كانـت فيه الامبراطورية العثمانية تشارك بصـورة مباشرة في شئون أروبا سواء أكان مع الحلفاء ، أم مع الأعداء عندما بدأ الموظفون الرسميون والمؤرخون العثمانيون في توجيه الاهتمام نحو النقاط الدقيقة في العلاقات العالمية الأروبية . ولم تحذف ألفاظ السباب هذه نهائياً إلا في أواخر القرن الثامن عشـر ، وحتى بعد ذلك التاريخ . . استمر الدبلـوماسيون المسلمون يشيرون فـي تقاريرهم بكلمـة كافر المحطة من القـدر لكل شخص أو مجموعـة أو هيئة قابلـوها . ومـع الـقرن التاســع عشـر . . فإن هذه اللغـة بدأت في الانقـراض عند استعمال الوثائق والتأريخ ، بالرغم من أنها ظـلت مستعملة بصورة شائعة ودارجة لفترة أكثر تأخراً .

ونظراً لإعطاء الديانة مركز الصدارة بالنسبة لاهتمامات المسلمين حتى من قبل الدولة . . فمن المتوقع أن يوجد بعض الاهتمام تجاه الديانة في العالم الغربي . ولقد أشار جزء كبير من المبعوثين والمؤرخين المسلمين إلى الأمور الدينية ، ولكنهم لم يظهروا اهتماماً كبيراً تجاه المسيحية الأوروبية وقدموا عنها معلومات قليلة جداً ، فلقد عرفوا أن الأوروبيين كانوا مسيحيين ، وكان هذا كافياً بالنسبة لأغلبهم ، ومع كل هذا فلم تكن المسيحية جديدة بالنسبة لهم ، بل كانت الديانة السابقة على الإسلام مباشرة ، ولا تزال ممثلة في أقليات كبيرة في الأراضي الإسلامية . ومن وجهة النظر الإسلامية . . كانت الديانة المسيحية موضوعة في الاعتبار ومفهومة .

ولقد كان لدى الدارس المسلم في العصور الوسطى مؤلفات أوروبية كبيرة باللغة العربية عن المعتقدات والشعائر المسيحية ، وربما تجمعت منها معلومات مفصلة إلى حد ما عن التاريخ المبكر للمسيحية وعن المدارس المختلفة والطوائف داخل الكنيسة . هذا الاهتمام المبكر لم يكن متواصلاً ، ويبدو أن المناقشات التي مارسها المؤلفون عن المسيحية كانت تعتمد على النصوص الإسلامية المبكرة ، أكثر من اعتمادها على الملاحظات أو المعلومات الجديدة . وهكذا . . فإن "كاتب جلبي" في بحثه العلمي الذي كتبه عن أوروبا في ١٦٥٥م يبدأ بتعليق عن الديانة المسيحية في العصر الوسطى تقريباً . ويذكر لقرائه أن هذه الديانة ترتكز على أربعة أناجيل أحصاها بصورة صحيحة ، وإذا ماقورنت بالإسلام فإنها ترتكز على خمسة أسس رئيسية هي : التعميد ، والثالوث المقدس ، والتجسيد ، والعشاء المقدس ، والاعتراف . ولقد خصص جزء مختصر لكل من تلك الأسس ، تحت المعلومات عنه شاملة إلى حد ما ، فقد كانت موجودة في الكتابات العربية الكلاسيكية ، ويفسر هذا بأن المسيحيين كانوا ينتمون إلى ثلاث مدارس، أو طوائف رئيسية ، والكلمة التي يستخدمها "مذهب" Madhhab (باللغة التركية Mazheb) وهي عادة تشير إلى المدارس الأربعة الخاصة بالفقه السني . والمدارس المسيحية الثلاثة هي : اليعقوبية ، والملكانية ، والنسطورية ، ويقدم "كاتب جلبي" تفسيراً لمذاهبهم المختلفة يعتمد على طبيعة المسيحية الإنسانية المقدسة . بحديث

مباشر . . فإن اليعاقبة هم أتباع الكنيسة السورية الخاصة بيعقوب البرادعي ، ويبدو أنه يعني أصحاب الطبيعة الواحدة بصفة عامة ، وهذا يظهر من إشارته بأن معظم اليعاقبة أرمنيون ، والمالكانية هم أتباع المدرسة التي اتفق على إنها الأرثوذكسية وهي مدرسة الروم اليونانيين والرومان .

ويفسر النسطورية بأنها مجمعة متأخرة انفصلت عن المذهب المقبول الشائع ، وشكلت طائفة منفصلة . ولقد تضاءلت كنائس اليعاقبة والنساطرة أيام "كاتب جلبي" إلى قدر طفيف ، وكانت كنائس الأرض والأقباط رعايا للحكم الإسلامي . ومن مثل هذه الاختلافات الأخيرة حدث الانشقاق الذي قسم الكنيسة المالكانية إلى أرثوذكسية يونانية شرقية وكاثوليكية رومانية غربية ، والتقسيم الجديد في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الغربية ، الذي كان سببه الإصلاح الديني البروتستانتي الذي نعتقد أنه أكثر أهمية بالنسبة للمراقب العثماني من المحاولات الأوروبية الخاصة باليعاقبة والنساطرة ، ولم يذكر لنا "كاتب جلبي" شيئاً يذكر عن كل هذا[1] .

إلا أن الاختلافات بين الكاثوليك والبروتستانت لم تصرف الاهتمام تماماً فهناك شرح لأحد المؤرخين العثمانيين عن الحروب الدينية في وسط أوروبا . فهو يذكر لنا أنه في يوم ما . . كان إمبراطور النمسا يشعر بالحزن والاكتئاب بصورة اضحة والدموع تملأ عينيه لدرجة أن زوجة ابن ملك إسبانيا سألته عما يؤلمه . فقال إن سبب القلق هو الاختلاف بيني وبين السلطان العثماني . فكلما أرسل السلطان أوامره باستدعاء الأمراء الذين تحت سلطته ليأتوا بقواتهم للخدمة في جيوشه حضروا في الحال ووضعوا أنفسهم رهن إشارته دون شرط ، أما حين يرسل إمبراطور النمسا هذه الرسائل إلى أمراء هنجاريا فإن تلك الرسائل لا تمثل موضوعاً يشغلهم بحيث يقدمون له أية خدمة أو امتثالاً لأوامره ، وأجابت الامبراطورة على هذه الشكوى بقولها "إن محاربي الباشا العثماني منتمون إلى عقيدته وكيانه ، وهذا هو سبب طاعتهم له ، بينما يرفض امراؤك الهنجاريون الامتثال لك لأنهم على ديانة أخرى غير ديانتك" ، فأعجب الامبراطور بهذه الإجابة ، وأرسل المبعوث والكهنة في الحال إلى الأمراء النهجاريين وأمرهم "بالتحول

إلى عقيدة المضللة" . ولقد قبل بعضهم هذا ، لكن أكثرهم رفضوه ، مما أدى إلى طغيان أكثر . وهذا يفسر لماذا أرسل الله العلي العظيم ، الذي لا يغفل عن أي بشر ولو كان كافراً ، الجيوش الإسلامية ضده[٥] . أيضاً "إفيليا جلبي" الذي رحل عبر المجر والنمسا ، وهم أقدم من السابق بفترة قصيرة ، إن الاثنين ينتميان إلى كنيستين مختلفتين ؛ فالهنجاريون ينتمون إلى عقيدة اللوثريين ، في حين أن النمساويين "يطيعون قداسة البابا" . ولقد سجل أنه بسبب هذا كان كل يواجه الآخر بشراسة كلاهما مسيحي . . فقد اجتمعا معاً ضد المسلمين ؛ لأنهم طبقاً للكلمات الإسلامية التقليدية التي أشار إليها "إفيليا جلبي" بأن "كل غير المؤمنين كانوا على ديانة واحدة"[٦] .

ويبدو أن البيروقراطية العثمانية كانت أكثر انتباهاً من العلم العثماني لأهمية الاصطدام بين البروتستانت والكاثوليك وقيمته المحتملة للباحث الإسلامي . وجزء منها ربما يرجع إلى المعلومات التي احضرها اللاجئون المسلمون من إسبانيا ، وجزء يرجع إلى المجهودات التي بذلها بعض المبعوثين البروتستانت الذين أظهروا أنفسهم بأنهم موحدون زاهدون أكثر التصاقاً بالإسلام عن العبادات الصورية والكاثوليك المشرك ، وقد كان ذا أهمية تناسب التجارة أو أي أمور أخرى . ويبدو أن العثمانيين لم يكن لديهم أي اهتمام بمثل هذه المناقشات ، ولكن من حين لآخر كانوا يضعونها تحت الفحص . وعندما قام الموريسكون Moriscs بثورة إسبانيا عام ١٥٦٨ - ١٥٧٠ أرسل لهم السلطان رسولاً خاصاً ليجذب اهتمامهم لصراع اللوثريين المستمر ضد "هؤلاء ، الذين كانوا رعايا لقداسة البابا ولمدرسته" ونصح المتمردين بتأسيس حركات سرية ضد اللوثريين ، وذلك عندما قاموا بالحرب ضد قداسة البابا لفرض عقوبات على المقاطعات الكاثوليكية وعلى الجنود الذين في منطقتهم [٧] . وقام سليم الثاني بإرسال عميل سري لمقابلة قادة البروتستانت في هذه المقاطعات . ويسجل خطاب ملكي عثماني الاهتمام الشائع بين المسلمين واللوثريون الذين كانوا أيضاً في حالة حرب مع الكاثوليك ، ورفضوا قبول عبادتهم للأصنام " حيث إنك قد رفعت سيوفك ضد تابعي الكنيسة الكاثوليكية ، وحيث إنك قد نظمتهم بصفة منتظمة ، فإن رأفتنا الامبراطورية واهتمامنا الملكي قد

خصص لك وهو في الطـريق لبلدك ، وحيث إنك لم تكن عابـداً للأصنام ، وإنك قد أبعـدت عـابدي الأصنام والصـــور عن الكنائس ، واعـتنقوا ديانتـك بحبل الله الـعلي العظيم ، هو الواحـد وعيسى المقدس هو رسوله وخادمه ، وهم الآن يلتـمسون بالقلب والروح العقـيدة الصادقة ، ولكن ادعـى غير المؤمنين أن البابـا لم يعثر على ضـالته في نسب القدسية إلى عيسى المقدس (عليـه الـسلام) ولقد ألقت عبادة الأصنام والصور التي صنعها بيديه الشك في وحدانية الله ، وحـرضت كثيراً من خادمي الرب على السير في طريق الخطأ هذا [٨] . ولقد كان الاهتمام العثماني بالملـكة اليزابيث الإنجليزية له اهتمام مشابه فيـما بعد مع البرتسـتانت ليسوا كخلفـاء ، لا قدر الله ، ولكن كتشـويش مفيد للقوى الكاثوليكية . وهكذا استطعت الهيئة الباباوية أن تهرب بصعوبة من دائرة الاهتمام الإسلامي ، وقد علق كثير من الكتاب المسلمين على الظاهرة الغريبة لحكام الروم ، وهو نوع آخر من نظام الملك الكاهن أطلق عليه اسم البابا Al- Bab ، ولم تكن في الإسلام وظيفة كـاهن أو نظام كنسي ، وكـان من الصعب على المـسلمين إدراك ظاهرة التـنظيم الموسع للكنيـسة المسيحية ، وقد أدت المعرفة اللـبقة للنظام الإداري للكنيسـة الغربية في العصور العثمانية إلى أن تكون مثل تلك الهيئات واضحة . ولذلك.. فإن أول من ذكر البابا ، هو أميـر عربي يسمى هارون بن يحيى ، الـذي زار روما حوالي ٨٨٦م ، ولقد سجل بوضوح أن روما مدينة يحكمها ملك يطلق عليه اسم البابا وهو لا يقدم أي شرح لهذا اللقب . ويبـدو أن إطلاق هذا اللقب كان بمثابة اسم شخص . ولقـد جاء التعليق عن روما في القـاموس الجغرافي لياقوت كـاملاً شيئاً ما : "في الوقـت الحالي روما في أيدي الفرنج ويطلـق على ملكهم اسم ملك الألمان ، ويـثبت فيها البابا ويطـيعه الفرنجة وهو بالنسـبة لهم في مقام الإمام . وإذا لم يطـعه احد منهم اعتبروه مـتمرداً وشريراً ، يـستحق النفي والـعقاب والموت ، وتفرض عليه عدة تحريات تختص بـنسائهم وجنودهم وطعامهم ، وشرابهم ، فلا يستطيع أحد أن يخالفه" [٩] .

ويبدو أن بعض الأمـــور الخاصة بهذه الهيـئة قد انتقلت إلى الأجزاء الـشرقية من العالـم الإسلامي ، ففي القـرن الثالث يتحـدث الشاعر الفـارسي الخاقاني في قـصيدة

هجائية عن بطريرك الزمان البابا بطرس في ذلك الوقت [١٠] . ويبدو أنه يخلط بين تلك الهيئة وبين البطريكية الخاصة بالكنائس الغربية ، وهو الخطأ الشائع لدى المؤلفين المسلمين المتأخرين .

لقد ذكر المؤرخ السوري ابن واصل [*] أحد التعليقات الأولى عن السلطة الباباوية، وقد زار جنوب إيطاليا كمبعوث دبلوماسي عام ١٢٦١م ، وهو يقول عن البابا "والبابا يرومية هو خليفة المسيح عندهم ، والقائم مقامه ، وإليه التحريم والتحليل والقطع والفصل" . ولقد قدم مزيداً من الكتاب المؤرخين تعليقات متشابهة ، واحد منهم هو المؤلف التركي للمغامرات ، الذي قد سجل شيئاً فوق العادة وهو الاعتقاد المسيحي بأن البابا يستطيع أن يغفر الخطايا ، ولم يسبب مثل هذا الوضع لسلطان البابا دهشة بين الزائرين القادمين من الأراضي المسلمة ، فلقد كان المسلمون شديدي المعرفة بالسلطة الدينية ، وفي الحقيقة لم يعترفوا بأي دين آخر ، كما أن الإسلام لم يعترف بالرومانية كشيء مميز للسلطة الدينية بين الجنس البشري . وبالنسبة لهم . . فإن السلطات التي منحت للبابا كانت تخص الله وحده . ويستطرد ابن واصل حديثه قائلاً: "وهو الذي يلبس الملوك تيجان الملك يقيمهم . ولا يتم لهم أمر في شريعتهم إلا به . ويكون راهباً ، وإذا مات قام مقامه من هو أيضاً متصف بصفة الرهبانية " [١١] .

ونجد ملاحظة أخرى مختصرة عند القلقشندي عن الباب ، وذلك في كتابه عن ظيفة المجلس القضائي الكنسي يقول فيها : "مكاتبة البابا ، وهو بطريرك الملكية ، القائم عندهم مقام الخليفة ، والعجب من جعله في "التثقيف" بمنزلة القان عند التتار ، والقان إنما هو بمنزلة ملكهم الأكبر ، والباب ليس من هذا القبيل ، بل إليه أمر الديانة حتى في التحليل والتحريم .

وقد تقدم في الكلام على المسالك والممالك عند ذكر البطاركة أنهم كانوا يسمون القسيس ونحوه أباً ويسمون البطريرك أباً ، فأحبوا أن يأتوا على البطريرك بسمة له تميزه عن غيره من الآباء ، فاختاروا له لفظ البابا ، وإنه يقال فيه الباب والبابا أبو الآباء ، ثم لما غلب الروم على المملكة ، وعلت كلمتهم على اليعاقبة ، خصوا اسم الباب

بطريكهم ، فصـار ذلك علماً عليه ، ومقره مدينة رومية عـلى ما تقدم هناك ، ورسم المكاتبة إليه على مـا ذكره في التثقيف ضاعفاً الله تعالى بهجـة الحضرة السامية ، الباب الجليل ، القديس الروحاني ، الخاشع ، العامل ، بابا رومية عظيم الملة المـسيحي ، قدوة الطائفة العـيسوية ، ملك ملوك النصـرانية ، حافظ الجسور والخلجان ، مـلاذ البطاركة والأساقفة والـقساوسة والرهبان ، تـالي الإنجيل ، معرف طـائفة التحريم والتـحليل ، صديق الملوك والسلاطين. . . . " .

هذا ما وجدته مسطوراً ولم يكتـب إليه شيء في مدة مباشرتي ، ولا أدري في أي شيء كان يكتب إليه ولا عرفت تعريفه" (١٢) .

وهناك تفســير عــن الـبابوية كان تاريخياً ومـعاصراً يوجد فـي الـتاريخ الجامع "لرشيد الـدين ، وهو الذي كتب فـي إيران في السنوات المـبكرة للقرن الـرابع عشر ، وهـي مستقاة طبقاً لما ذكـر مـن المبعوث الـبابـوي ، ومـن التاريخ الممثل . وفـي بحث « كاتب جلبي » الـقصير عن أوروبا ، يشتمل علـى فصل عن البابوية به قائـمة رئيـسية ببدء البابوات وتواريخ انتخابهم ومدة ولايتهم بـدءاً ببطرس ومنتهياً بالبابا بول الثالث ، حيث من المعروف أنه أصبح بابا سنة ١٥٣٥ (١٣) وبرغم أن ما ذكره « كاتب جلبي » عن البابـاوات ، لم يكن بـه أي ذكر لموت بول الـثالث الذي كـان عام ١٥٤٩ أو لأي من خلفائه . . فمن الممكن الاعتقاد بأن مصدر المعلومات الذي استخدمه كان عمره أكثر من مائة عام . ومثل كثير من الأمور الأخرى . . فإن المـؤلف المسلم في هذا الأمر لم يشعر بحاجة أوروبا ، ولم يجـد فرصة للحصول على معلومات جاريـة للعصر . وحيث أن تعليق كاتب جـلبي عن علم اللاهوت المـسيحي أقدم بألـف عام . . فإنه من المدهش أن قائمة البابـاوات قد اختفت بعد ذلك بقرن .

وأفضل تفسيـر عن البابـاوية وعن المسيحـية الأوروبية قدمه الـسفير المـراكشي الوزير الغســاني الذي زار إسبـانيا في نـهاية القـرن السابع عـشر ، وكان لديـه قدر كبيـر من المعلومـات ليس للحديث فقـط عن البابا ، ولكن عــن تنظيم البابويـة ودور الكرادلة ، والطريقة التي ينتخب بها البابا الجديد ، ويبدو أن النظام كله قد أثار غضبه الخاص فكان

كل ذكر عن البابا يقدمه بسباب لعنات ، ويستمر في مناقشة تلك الأمور محكمة التفتيش الدينية التي اضطهدت اليهود ، وتاريخ الإصلاح الديني ، والديانات اللاحقة التي اصطدمت مع المملكة المسيحية ، حتى أن يذكر شيئاً عن الإصلاح الديني في انجلترا الذي أرجعه إلى المشاكل المادية للملك هنري الثامن . ودون شك . . فإن هناك نقاطاً وثيقة تجمعت عليه نتيجة لوجوده في إسبانيا . وكانت مناقشاته تدور أحياناً حول الممارسة الكاثوليكية للاعتراف ، وعن الأضرار التي أدت إلى ظهورها [١٤] ولقد ترتب على ذلك أن المبعوثين المراكشيين إلى إسبانيا اتبعا ما ذكره في مناقشته عن الكنيسة وهيئاتها وتناول عديداً منها بإسهاب مثل محكمة التفتيش الدينية .

ومن الموضوعات القليلة التي يبدو أنها أثارت اهتماماً ما بين هؤلاء الزائرين المسلمين إلى أوروبا موضوعات ترتبط بالإسلام نفسه ؛ ففي الأماكن القليلة نجح السكان المسلمون في البقاء في البلاد التي عادت إلى الحكم المسيحي . وبطبيعة الحال . . كانت تلك الأماكن تجذب بعض الاهتمام . ولقد كان ابن واصل مهتماً بالعثور على سكان مسلمين لا يزالون يعيشون في جنوب بلاد إيطاليا تحت حكم النورمان : "وبالقرب من البلد الذي كنت نازلاً به مدينة تسمى لوجره أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية ، تقام فيها الجمعة ، ويعلن بشعار الإسلام ، وهي على هذه الصفة من عهد أبيه الإمبراطور . وكان منفريدا قد شرع في بناء دار علم بها ليشتغل فيها بجميع أنواع االعلوم النظرية . ووجدت أكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة به مسلمين . ويعلن في معسكره بالآذان والصلاة" . ويلاحظ ابن واصل أن "البابا كان قد حرم منفريدا لميله إلى المسلمين وخرقه ناموس شرعهم" [١٥] .

ولقد طرد المسلمون من صقلية وإيطاليا بعد مرور وقت مناسب . وظلوا موجودين لبعض الوقت في إسبانيا حتى بعد قرار إبعادهم سنة ١٤٩٢ ، ولقد منح كل المسلمين واليهود في مملكة إسبانيا حق الاختيار : إما التحول إلى عقيدة جديدة أو النفي أو الموت ، ولقد نجحت طائفة مسلمة تعرف باسم الموريكوس في البقاء لبعض الوقت ، وقامت بعديد من التمردات ضد التاج الإسباني ، وفي وقت ما نجحوا في السيطرة على

مدينة غرناطـة ، ولقد اتجه المسلمون الإسبان سواء قـبل أو بعد هزيمتهم النهـائية لطلب المساعدة من العـثمانيين أكبر قوة مسلمـة في ذلك الوقت ، ولكن لم يكن لـطلبهم هذا تأثيـر كبير . حقيـقـة . . قـام الـعثمانيـون بالمفاوضات مـع الموريكـوس وحـاولوا بوسـائـل مختلفة نصحـهم ومساعدتهم من حـين لآخر . ولقد أرسل مبعوث عـثماني سري لتنسيق العلاقات والمعلومات والتحركات بين إسبانيا وشمال أفريقيا ، واسطنبول ، ولكن كانت هـذه قضية خاسرة . . فبعد فـترة من الزمن اتبع الموريكـوس أسلافهم في اختيار النفي .

وبدأ يظهر مـوقف مشابه في الانسحـاب العثماني من وسط أوروبـا . وفي معظم الأماكن المسيـحية التي أعيد فتحـها . . كان يتبع الفتح رحـيل المسلمين باستثـناء الفتح الروسي لأراضي التتار . وحتى القرن التاسع عـشر . . فإن السكان المسلمين كانوا تحت الحكم المسيـحي جوهرياً . وقد ظل كل هذا في أي مـكان آخر باعثاً للاهتمـام بالعهود الماضية وذكريات الماضـي الإسلامي . ولقد كان على المبعوثين المراكشـيين إلى إسبانيا ، والمبعوثين العثمـانيين إلى وسط وجنوب أوروبا المرور غالباً عبر المـقاطعات الإسلامية ، التي فقدت نتيجة لإعادة الفتح المسيحي . وتظـهر المجموعتان تشابهاً ملحوظاً . . فمثل الزائرين الأوروبيين للشرق الذين يبحثون عن آثار الماضي الكلاسيكي والمسيحي . . فإن الزائرين المـسلمين لأوروبا كانوا مهـتمين بالبقايـا الإسلامية ، وكانت تحركهـم النقوش الإسلامية . وهكذا . . فإن السفير الغساني يسجل أن سكان مكان ما في إسبانيا يسمى Villafrance- Palacios هم من تـبقا أحياء مـن الأندلسيين ، وهـي كلمة تعـبر عن السكان المـسلمين الأوائل بإسـبانيا فدمهـم دم العرب ، وتختلـف وسائل عيشتـهم عن وسائل الأجانب (Ajam) وسيولهم نحـو المسلمين ، ورغبتهم أن يكونوا مـعنا وحزنهم عند الرحـيل كل هذا يشير بصورة قاطعـة إلى أنهم هم بقايا الأندلسـيين ، وكان قد مر وقت طويـل أقاموا خلاله بـين غير المؤمنين الـلهم احفظـنا" ، وادعى الغسـاني وجود Crynto - Muslim تسلم منحنى وهو ٢٥- Belos الذي جاء مع ابنه "لها نفس المظهر العربي" والذي قام بعـمل "إشارات غامضة" صدقها السفيـر ، بالرغم من عدم وجود أي إثبات يشير إلى أنه مسلم مختلف[١٦] .

أيضاً وجد السفراء العثمانيون وسيلة للتعبير عن التعاطف بينهم وبين رعاياهم السابقين في ضجاريا وفي جنوب بولندا . وهكذا . . فإن عزمي أفندي الذي مر عبر ضجاريا عام ١٧٩٠ يسجل قمة الصداقة والود التي أظهرها تجاهه وتجاه الامبراطورية العثمانية بصفة عامة [١٧] .

ويشير المبعوثون العثمانيون الذين كانوا يمرون عبر المقاطعات التي فقدت في وسط وجنوب أوروبا إلى الشعور الدافئ الواضح من تلك الشعوب تجاه أسيادهم السابقين . وأكثر دهشة من هذا أن السفراء المراكشيين إلى إسبانيا في أواخر القرن الثامن عشر اكتشفوا وجود عاطفة متشابهة .

ويحذر Keenly من البقايا الإسلامية الكثيرة في تلك البلد ، الذين اندسوا في الحياة الدنيا واعتقد بعض المبعوثين من مراكش أن المسيحية في إسبانيا كانت تطفو على السطح فقط ، وأن الموالين المسلمين القدماء في انتظار ظهورهم مرة أخرى . ويبدو أن تشويه البقايا المسلمة قد أدى غالباً إلى قلق الزائرين المسلمين ؛ فقد طالب الغزال المراكشي أثناء زيارته لغرناطة بأن يوضح حجر عليه فقط باللغة العربية ، بطريقة تليق به ؛ بحيث يصبح من السهل قراءته : بل يزعم أنه أثناء زيارته لجامع في Cordove أصر على نزع حجر عليه نقوش عربية دينية ، كان يستخدم للتبليط . وقد كان للمآذن اهتمام باستعمالها ؛ فوجدوها في إسبانيا قد استخدمت كمنارة ، أخرى في Serbi استخدمت كبرج ساعة ، وقد أزعج هذا الزائرين المسلمين ، ولم تكن الجماعات سالمة من التدنيس فيسجل زائر تركي لبلغراد بعد فترة قصيرة من احتلال النمساويين لها ، أن البعض منها يستخدم كمنازل [١٨] ، وكان هذا دليل آخر على العادات القذرة لغير المؤمنين .

وقد ظهر شعور آخر في كتابات الزائرين المسلمين للمناطق ، التي فقدت في كل من شرق وغرب أوروبا ، وهو أن تلك المناطق هي أراضي مسلمة ، اغتصبت بطريقة غير قانونية من الإسلام ، ويقدر لها أن تعود حتى أن الاحتلال القصير كان كافياً لظهور مثل هذا الحق . وهكذا . . ففي عام ١٧٦٣ ، كان رسمي أفندي يزور حصن

Kanuniets ، الذي شيده العثمانيون في الفترة من ١٦٧٢ - ١٦٩٩ ، فحركه منظر المئذنة بتاريخ تأسيسها الإسلامي وآيات القرآن : " عندما قرأت هذا النقش تفوهت بالدعاء من قلبي بأنه سيسعد الخالق أن تعود تلك الأماكن سريعة إلى الإسلام ، حتى تدوي كلمة الحق من فوق هذه المئذنة " [١٩] .

أيضاً فيما بعد عام ١٧٧٩ . . كان السفير المراكشي Muhammed ibn jthmen atmihnasi لإسبانيا يتتبع الفلكي الأول لأسماء المناطق كلها ، مع ذكره عبارة "اللهم ردها إلى الإسلام" [٢٠] .

وبصفة عامة . . فقد نظر المسلمون إلى المسيحيين على أنهم أصحاب ديانة الإسلام ، وحتى عندما كانت الجيوش المسيحية بعد فتح مقاطعة تلو مقاطعة في إسبانيا ، وفي جنوب أوروبا بعد ذلك كان . . ينظر إليها كخطر سياسي وعسكري ، أكثر منه ديني . وفي الحقيقة . . فإن التحولات العنيفة من الإسلام إلى المسيحية كانت نادرة جداً ، ففي الأراضي المسلمة . . كان الارتداد - وهو التحول من النظرة المسلمة- كان جمعاً عظيماً ، حتى أنه في الأراضي المسيحية كانت القوانين المسلمة تشجع المسلمين هناك على الهجرة بدلاً من الاستسلام للحكم المسيحي ، وعندما يجبرون على التحول كانت أخلاقهم مشكوكاً فيها .

أول خطر ملاحظ من الغرب للمعتقدات المسلمة جاء مع الثورة الفرنسية ، عندما كانت الدعاية لأول مرة موجهة للمسلمين بالإسم ، وليس للديانات القديمة ، ولكن للمذاهب الجديدة الفاتنة . وظهرت إشارات عثمانية تحذر من مثل هذا الخطر في المذكرة التي خطها للسكرتير العام العثماني في ربيع سنة ١٧٩٨؛ ليضمه مجلس الدولة الأعلى ؛ مفسراً أصل الأحداث الأخيرة في فرنسا ويشرح السكرتير العام : "إن الملحدين المعروفين والمشهورين روسو وفولتير أوسعوا شتمًا وسباباً ضد الرسل والأنبياء والملوك الكبار ، وعملوا على محو وإزالة الدين ، مع تلميحات عن حلوة المساواة ونظام الجمهورية ، وعبروا عن كل هذه الكلمات ، في عبارات سهلة الفهم على شكل سخرية وبلغة عامة الشعب [٢١] .

لقد ادعى الغزو الفرنسي لمصر ظهور أفكار جديدة ، دفعت الامبراطورية العثمانية إلى شن ما يعرف في الوقت الحاضر بالحرب النفسية ، وذلك من خلال البيانات الموجهة إلى رعايا السلطان بكل من العربية والتركية ، ولقد وصف خبث الثوريين في النهاية :

"إن الأمة الفرنسية (اللهم دمر بلادهم وحط من لائهم لأنهم كفرة طغاة ودائمو التمرد) لا تؤمن بوحدانية إله السموات الأرض ولا تؤمن ببشرى الشفاعة في يوم القيامة ، ولكنها تخلت عن الدين كله ، وأنكرت وجود الآخرة وعقوبتها ؛ فهم لايؤمنون بيوم البعث ، ويدعون أن هذا يحطنا على مر الزمن ، ولا يوجد شيء إلا الرحم الذي يبعثنا والأرض التي تبتلعنا ، ولا يوجد أي بعث أو حساب ، أبعد من هذا . . فلا توجد اختبارات أو عقوبات أو أسئلة أو أجوبة . . فهم يبلغون أن الكتب التي أتى بها الرسل خطأ واضح ، وأن القرآن والتوراة والأناجيل ليست إلا أكاذيب وأحاديث باطلة ، وأن هؤلاء الذين يدعون أنهم رسل . . يكذبون على الشعب الجاهل . . وأن كل الناس متساوون من حيث إنسانيتهم ، ومتشابهون بكونهم آدميين ولا أحد لديه أي تفوق مميز على الآخر ، وكل شخص مسئول بنفسه من ردمه وتنظيمه لمعيشته في هذه الحياة . وعلى هذا الاعتقاد الباطل والرأي الوقح . . أسسوا مبادئ جديدة ، ووضعوا قوانين وأنشأوا ما همس به لهم الشيطان ، وحطموا أسس الديانة ، ومنحوا أنفسهم حق تحريم الأشياء وسمحوا لأنفسهم بما تشتهي ، وجذبت آراؤهم عامة الشعب الذين أصبحوا مجانين ومخرفين ، وأشاعوا الفتنة بين الدين والعرض ، وأثاروا الخلاف بين الملوك والدول .

ويحذر كاتب البيان قراءه من التعليق الفرنسي :

(كانوا يوجهون أنفسهم تجاه كل جماعة بكتب كاذبة وأكاذيب منمقة ويقولون "نحن نتمنى لكم ولديانتكم ولجماعتكم" ، ويقدمون لهم وعوداً باطلة يتفوهون كذلك بوعيد مخيف).

وحيث إن هذا الفساد كان شائعاً في أوروبا . . فإن فرنسا تحولت تجاه الشرق وبعد ذلك . . تحولت مؤامراتهم الشريرة تجاه أمة محمد . . " [٢٢] .

لقـد كـانوا واقعـاً ملمـوسـاً ، ولاول مـرة - منـذ بداية الإسلام - يواجـه تحدياً مذهبياً وفلسفيا ، هدد كل التأسيـسات المذهبـية والاجتماعية المسلمة فلا يوجد شيء مثله من قبل ، فبـعد الهزيمة والاستحواذ عـلى مجتمعات الشـرق الأوسط القديم . . واجه الإسلام ثلاث حضـارات رئيسية : في الهـند والصين وأوروبا . واحدة فقـط من تلك الحضارات ، هي الـثالثة كان ينـظر إليها كصاحـبة ديانة تستـحق التقدير ، وأنـها تمثل تشكيلاً سياسياً وعـسكرياً خطيراً بديلاً للقوى الإسلامية . ولكن الديـانة المسيحية كانت تتراجع دائمـاً أمام الإسلام، وكانت أحسن محـاولات القوة المسيحية هـي الحفاظ على نفسهـا أمام تقدم الاسلحة المسـلمة . حقيقة فـي بداية العصر الوسطـى . . واجه علم الكلام الإسلامـي تحدي العلم والفلسـفة الهللينـية ، ولكن هذا كان محصـوراً في حيز ضيق فقد جاء كتراث حضارة مهزومة ولكن جزءاً من التراث الهلينى انحصر واندمج مع الإسلام وطرح الباقي جانباً .

أما التحدي الجديد الذي ظهر للإسلام عن طريق الحياة الدنيا الاوروبية . . فقد كان أمراً مختلفاً تماماً مجاله أوسع وقـوته أكبر ووجوده أقوى ، إلى جانب ذلك أنه لم يأت من عالم مهزوم ، ولكنه من عالم منتصر . . فلسفة حرة عما تضمنته النظرة المسيحية ، وقد عبرت المجتمع الغـني القوي الذي كان يتوسع سريعاً . وقد بدت لـبعض المسلمين أنها تحتوي على سر النجاح الأروبي والتقـدم ضد العنف والفقر . وفي خلال القرنين : التـاسع عشـر والعشريـن كان للـنظام الـديني الأوروبـي وسلسـلة المذاهب الـسياسـية والاجتماعية والاقتصادية وقع السحر على أجيال المسلمين المتتابعة .